١٦٦٠٩

التفسير

تفسير قصة شعيب عليه السلام

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أسلفنا لك أن مما أبلغه سيدُنا شعيب عليه السلام قومَه نهيَهم عن نقص المكيال والميزان، وأمرهم بإيفائهما، ونهيَهم عن البخس وعن أفحش الفساد الذى كانوا عليه مقيمين وأنّ مما أبلغه إياهم أيضا خوفَه عليهم عذابَ يوم محيطبهم، وأنّ ذلك اليوم يومان، يوم فى الآخرة ويوم فى الدنيا وأنهم ان آمنوا وانتهَوْا عما نُهوا عنه وائتمَرُوا بما أُمرُوا به فان لهم أجرا حسنا يعجّل الله تعالى لهم بعضَه فى الدنيا ويدّخر لهم بعضَه الأكملَ الأوفى فى الآخرة، وهو (بقية الله .) على ما بيناه فيما سبق .

فاما اليوم المحيط فى الآخرة فهو اليوم الذى فيه (يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وأُمِّه وأبيه . وصاحبَتِه وَبَنِيه . لِكُلِّ امْرِئٍ منهم يومَئذ شأنٌ يُغْنِيه . وُجُوهٌ يَوْمَئذ مُسْفِرةٌ ضاحكةٌ مُسْتَبْشِرةٌ . وَوُجوهٌ يَوْمَئذٍ عليها غَبَرةٌ . تَرْهَقُها قَتَرةٌ . أُولئك هُمُ الكَفَرةُ الفجرةُ .)

وأما اليومُ المحيط بهم فى الدنيا، فهو اليوم الذى ينطبق عليهم فيه المَثَلُ الذى ضربه الله تعالى لهم ولأشياعهم ممن كانوا قبلهم وممن سيكونون بعدَهم اذ يقول (وَضَرَبَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كل مكانٍ فكَفَرتْ بأَنْعُمِ اللهِ فأذاقَها اللهُ لباسَ الجوعِ والخَوْفِ بما كانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جاءهم رَسُولٌ مِنْهُم فكذَّبُوهُ فأَخَذَهمُ العَذابُ وَهم ظالِمُونَ . فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ حلالاً طيباً واشكروا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُم إِيّاهُ تَعْبُدُونَ)

لقد كانت مدينُ كثيرها هـذه القرية . آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، كما ذكّرهم به رسولهم شعيب عليه السلام فى قوله (إنى أراكم بخير) وقوله (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثّركم).

فأرجع البصيرة كرّتين إذاً فى ذلك الرزق الرغد الذى كان يُجبَى الى القرية من كل مكان ، هل تحيط به كيفاً . أو تُحصيه عدّاً ؟ ان الذى يحيط بذلك انما هو الله الذى أنعم به ، وهو علام الغيوب .

ان الرزق الرغد الكثير يُجبَى من كل مكان عاقبته طيبُ الحياة الدنيا ونُعومةُ عيشها ، فان به تكثُر الاموالُ وتعظُم الثروة ، فاذا أحسنت الأمةُ تصرّفها فى ذلك الرزق فآمنت بالله الذى أنعم به عليها ، وشكرته سبحانه فوضعت كلَّ نعمة فيما وُهبت لأجله ، فبشّرها بدوام ذلك الرزق وزيادته كما وعد سبحانه الشاكرين بذلك اذ يقول (لئن شكرتم لأزيدنكم) و (لا يُخلف الله وعده).

اذ ذاك يتكثّر النسلُ ويعظُم عددُ الأمة ، وتعمّها الصحةُ والسلامةُ من الآفات ، ويَقوَى سلطانُها ويَعزّ جانبُها ، ويُجلُّها من عداها ، ويتقى بطشَها من عاداها ، ويُغرس فيها العلم وينمو ، وتَعُمّ المعرفة وتثمر ، فتكثُر الصناعاتُ وتروج التجارات وتعمُر البُلدانُ ويَجُوب أهلُها الأرضَ لجلب المنافع برا وبحرا ، فيعمّ الخصب ويرغُد العيشُ وتتمتع الأمة متاعا حسنا الى أجل مسمى .

هذا هو الخير الذى رأى سيدنا شعيب عليه السلام قومه فيه وهذه هى الكثرة التى ذكّرهم بها ، ولذلك نهاهم عن نقص المكيال والميزان وأمرهم بإيفائهما ووعظهم بما وعظهم لإبقائهم فيه من ذلك الخير يغنيهم عن تلك المعاملة الفاحشة التى زعموها مَجلبة للربح والغنى وغفلوا عن أنها مجلبة الفقر والخسران ونذير العذاب فى ذلك اليوم المحيط .

أنذرهم نزولَ العذاب فى ذلك اليوم المحيط بهم ، وأخفُّه ما يصيبهم منه فى الدنيا من أذاقه الله تعالى لهم لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون فيسلبهم النعمة الواسعة

الفضفاضة والأمنَ الشامل والقوةَ والمهابةَ التى أسبغها عليهم حتى شملتهم ، ويبدلهم من كل تلك النعم اضدادها ، فيعمّهم الجوع بذهاب الثروة ونفاد الأموال وضعف القوة واندثار العلم والصناعة وخسارة التجارة وسائر ما كانوا يتقلبون فيه من الخير .

وحينئذ يصيرون أذلاء بعد عزتهم أُسَراء لغيرهم بعد إطلاقهم أرقاء بعد حريتهم الى غير ذلك مما يطيب له الموت وتُكره له الحياةُ .

هـذا بعض ما يصيبهم فى الحياة الدنيا من العذاب اذا عصوا الله فيما أمرهم به واجترحوا سيئات ما نُهوا عنه (ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقى).

كل هذا العذاب الكثير العظيم فى نفسه بعضُ قليلٍ مما هو أكثر وأعظمُ منه فى الدنيا (ولعذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون) وما جرّه عليهم وأوقعهم فيه الا ما أركسوا فيه أنفسهم من نقص المكيال والميزان وعدم استغنائهم بما اغناهم الله تعالى به من صنوف النِّعم وضروب الخير الذى أفاضه سبحانه عليهم .

هل يظن ظانٌّ أن هذا العقابَ الأليم وذلك العـذابَ المُوجِعَ انما هو جزاء لأهل مدين خاصةً دون من سواهم ولو فعل كما فعلوا واساء كما اساءوا ؟

ان ظن ذلك احد فانه يكون من المخطئين الغافلين كما اخطأ وغفل اهلُ مدين من قبله لأنه ظن كما ظنوا أن ما يُسلَب بنقص المكيال والميزان وعدم ايفائهما خيرٌ فى زعمه وهو نهايةُ الحُمق والجهلِ بمعنى الخير والشر ، وذلك أن الخير الحقيقيَّ انما هو ما كان حسَنا محمودا فى كل العقول مرغوبا فيه عند جميع الناس فى كل حال من الأحوال ، وهو المسمَّى بالخير المطلق ، وما عدا ذلك فهو شر ذميم وان زعمه بعض الناس خيرا ومنفعة لانه وافق شهوة باطلة فى نفسه .

اما الذى ظنه هذا الظان كأشياعه من قبل فانه الشرُّ كلُّ الشر كما علمت ولكنه لما وافق هوًى مُطاعا عندهم خدعتهم أنفسهم فزينت لهم سوء اعمالهم فرأوه حسَنا فأقدموا عليه اغترارا بهذه الخديعة وطمعا فى الغُنْم الذى هو بذور الخسار والغُرْم ولم يكترثوا بما

يلحق غيرهم من الغَبْن والضَّرّ وضَياع الحقوق على مستحقيها ماداموا يتوهمون ان فيه خيرا لأنفسهم. كما انه كان هو واهلُ مدينَ من المخطئين فياظنوا ، كذلك غيرهم كانوا جميعا من الغافلين عن امورٍ إغفالها إثمٌ كبيرٌ .

تلك هى السُّنَنُ الألهيةُ والدلائلُ الكونيـةُ التى نَصبها اللهُ الحكيم لعباده فى الآفاق ، وكذلك العقولُ والمَدارِكُ والوجداناتُ التى ركّبها الله القدير فى الفِطرة الآدمية التى كرّمها، ومثلُها الآياتُ البيناتُ التى أتمّ بها النعمةَ على عباده فيما انزل اليهم على السنة رسله من كتبه السماوية .

كل ذلك كان نِعما عظمى تفضّل بها سبحانه على العباد لتكون بها زكاةُ انفسهم وطهارتها من رذائل الأخلاق ، وليميّزوا بها بين الحق والباطل والنافع والضار والحسن والقبيح ، ويُقيموا عليهـا مصالحَهم الدنيويةَ والأخرويةَ لتحْسُنَ شؤونُهم الفرديةُ والاجتماعيةُ . أنعمَ عليهم سبحانه بتلك النعم ، ثم ارشدهم الى استعمالها والانتفاع بهـا ، كما قال تعالى : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الاعلَى . الّذى خَلَقَ فَسَوى . وَالّذى قَدَّرَ فَهَدى .) وكما قال فيما حَكَى عن سيدنا موسى عليه السلام فيما قاله لفرعونِ مصرَ (قَالَ رَبُّنَا الذى أعطَى كُلَّ شىءٍ خلقَه ثم هدَى .) ثم زاد سبحانه فى ارشادهم فأمرَهم بذلك فى شرائعه أمراً لا هَوادةَ فيه وعلّمهم كيف يتصرفون فى تلك النعم والمواهب وينتفعون بها ، وذلك قولُه عز وجل (قُلِ انظرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) وقـولُه (إنَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلمُؤْمِنِينَ وَفِى خَلْقِكُم وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءاياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون . وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءاياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ ءاياتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ . فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءاياتِهِ يُؤْمِنُون) وقوله (وَفِى الأَرْضِ ءاياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنْفُسِكُم . أفلا تُبصِرُونَ؟) وقولُه (وَنَزَّلنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبيانا لِكُلِّ شَىءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

اهتدى الذين قَدَروا تلك النعمَ حقّ قدرِها ... تلك ... له

فاستدلّوا بها على ما جُعِلتْ ادلةً عليه وربَطوا الاسبابَ الصحيحةَ بمسبَّباتها والوسائلَ المشروعـةَ بمقاصدها وميّزوا الاشياءَ النافعةَ بغاياتها الجيـدة وعَرَفوا الأمورَ الضـارة بنهاياتها الذميمة فوقَفوا عند الحـدود التى هداهم اليهـا العقلُ والشرعُ واستقاموا على الطريقة التى يصلون منها الى خَيْرَيِ الدنيـا والآخرةِ وتَقرَّبوا الى الله بامتثال اوامره واجتنابِ مناهيه شكرا له على نعمه وأَدَّوْا ما وجب عليهم من الحقوق لأربابهـا فوفَّوْا المكيالَ والميزانَ بالقسط ولم ينقصوها ولم يَبْخَسُوا الناس اشياءهم ولم يَعْثَوْا فى الأرض مفسدين وتمتّعوا متاعا حسنا بالخيرات الدنيوية التى عَجَّلَها اللهُ تعالى لهم واحتَسَبُوا عندَه عزّ اسمُه بقيةَ اجرِهم الحسنِ الذى ادَّخَره لهم فى الآخرة (والآخرةُ خيرٌ لِمَنِ اتَّقَى)

امّا أهلُ مدينَ ومَنْ ظنّ مثلَهم ظنَّ السَّوْءِ فانهم لم يقدِروا هـذه النعمَ حقّ قدرِها ، بل لم يقيموا لها وزنا ، فأهملوها ولم ينتفعوا بها ولم يَصِلُوا بينهـا وبين ما تُوَصِّلُ اليه من الخيرات الدنيوية والأخروية . ولهذا وعظَهم رسولُهم عليه السلام وخاف عليهم وحذّرهم عذابَ ذلك اليوم المحيط لأنهم بارتكابهم هـذه الآثامَ العظامَ كانوا ممن قال الله عز وجل فيهم (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدار) .

لعل فى ذلك الذى ذكرناه عِظةً وذِكْرى لمن كانَ له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ ، ليعلمَ أنّ هذا العقابَ عامٌ ، قَضَىَ اللهُ عز وجل به على كل أمةٍ من أمم الأرض وقعتْ فى ماثِمِ اللهِ ومعاصيه وعتَتْ عن أمْرِ ربِّها ورُسُلِه فانتهكتْ محارمَ اللهِ وزهِدتْ فى حسن ثوابه واستخفّتْ بأليم عقابه وجنَتْ على الفضائل وزيَّنتْ الرذائل واستهانتْ بصيانة الأعراض واستحلّتْ الحقوق وأكلَتْ أموالَ الناس بالباطل وطفّفتْ المكيالَ والميزانَ وبَخَسَتْ الناسَ أشياءهم ، وأفسدتْ فى الأرض بعد إصلاحها وزعمتْ أنّ استقامةَ الحياةِ الدنيا ورَفهَها انما هى فى نَبْذِ شرائع الله تعالى والقضاء عليها أو فى عصيان ما تُرشِدُ اليه العقولُ السليمةُ وتجاربُ الأمم التى ... كل ذلك منهم

إعجابٌ بأنفسهم واغترارٌ بما زعموه علماً (وَإِذا جاءوكم قالوا ءامَنَّا وَقَدْ دَخلوا بالْـكُفر وهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ واللهُ أَعْلَمُ بما كانُوا يَكْتُمون) (وإِن تَدْعُهُم الى الهُدى فَلَنْ يَهْتَدوا إِذاً أَبداً)

وبَعْدُ : فاننا نضرب صَفْحاً عن سَرْد أحـوالٍ نحن الآنَ عليها عاكفون وفى المسارعة اليهـا والتنافُسِ فى ارتـكابهـا والثناء عليها مُجدُّون وفى السخاء بالأعمـار وبَذْل الأموال وتـكذيبِ الوجدانِ واستغضابِ الرحمنِ مُتسابقون .

نضرب عن هذا صَفْحاً الى أَجلٍ قريبٍ ثم نَسأَلُ : هل هذه المخازى التى خالفتْ بهـا مدينُ أَمْرَ ربِّها وعصَتْ رسُلَه وفَسَقتْ بها عن حُكم العقل والفِطرة السليمةِ حتى كانت ممن قال اللهُ الحَـكَمُ العدلُ فيهم (وكَأَيِّنْ من قريةٍ عَتَتْ عنْ أَمْرِ ربِّها ورسُلِه فَحاسَبْناها حساباً شديداً وعَذَّبْناها عَذاباً نُـكْراً فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وكان عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً) هل هذه المنكَراتُ من التطفيف والبَخْس والأَفْسادِ فى الأرض بعد إِصلاحِها قد تَبيَّنَ لنا الآنَ نحن المسلمين غَيُّها وضررُها وقُبحُها فَرَبأْنا بانفسنا أَنْ نقعَ فيها كما وقع أهلُ مدينَ من قبلِنا حتى نأمنَ غضبَ اللهِ ان يَنزِلَ بنا ، فيسلُبَنا نعمتَه التى أنعم بها ولم نَشكرْها بحسنِ التصرُّفِ فيها كما أَعذَرَ الينا بذلك فى قوله (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَـيِّروا مَا بأَنْفُسِهِم .) وفى قوله (إِنَّ اللهَ لا يُغَـيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَـيِّرُوا ما بأَنفُسِهِم . وإذا أرادَ اللهُ بِقَومٍ سُوءاً فلا مَرَدَّ له . وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ .) ؟

هذا سؤال لا يَخْفَى الجوابُ الصحيحُ عنه على أحدٍ من المسلمين الآنَ بل كلُّهم به عالمون وكلُّهم اجماعٌ على أنه جوابٌ واحدٌ لا يخالِفُ فيه منهم أحد ولا يُمارى فيه ممارٍ مخالفٌ ولـكن قد أَبَى القلمُ أن يَبوحَ به لا كتمانا للحق بعد ما تبيَّنَ ، بل طمعا منه أَنْ نَتَدارك ما بأنفسِنا من سُوءِ الحـالِ وتبقى بقيةُ الآمالِ ليرفعَ اللهُ تعالى عنا نقمتَه ويُتمَّ علينـا

نعمتَه فنسارعَ اذ ذاك الى تبشيرِ اخوانِنا المسلمين باستقامة الأمور وصلاح الشؤون ان شاء الله تعالى ، ونُثْنِي على اللهِ المنعِمِ بما هو أهله .

لقد تبين للمستمع المتدبِّرِ فيما قدمناه أَنَّ جميعَ ما جاء فى شريعة سيدِنا شعيبٍ عليه السلام هو بعينه ماجاء فى الشريعة المحمدية لم يتبدلْ منه شىء ولم يُنسخْ منه حُكمٌ .

وتوضيح ذلك ، أنها احكامٌ اتفقَ الشرعُ والعقلُ معًا على أنها خيرٌ دائمًا فى كل زمانٍ وفى كل حال محمودةٌ عنـد جميع العقلاء على وجْهِ الدهرِ ، ومن البَداهةِ ان كلَّ ما كان شأْنُه ذلك فانه حكمٌ لا يتغير ولا ينسخ ، ولهذا كان دينُ الله تعالى واحدا لا يعتريه تبديل ولا نسخ فى الأحكام المتعلقة بالله تعالى كنعوته الألهية مثل القدرة والارادة وسائرِ كمالاته وكأحكام النبوات من الصدق والأمانة وتبليغ وحى الله تعالى وكالفضائل مثل الوفاء بالوعد والصدق فى القول وأداء الأمانات الى أهلها والبر بالمحتاجين الى غيرذلك، فدينُ الله تعالى واحد لا تبديل فيه ولا نسخ كما قلنا فى كل زمان ومكان لأى أمة من الأمم على لسان أى رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

نعم قد دخل النسخ بعض الاحكام الفرعية العملية ككيفيات الصلاة وكأكل ما له ظُفُر من الحيوان مثلا وكان مُحرَّمًا على الذين هادوا ، أما الأحكام الأصلية العملية كنفس الصلاة والزكاة وكايفاء المكيال والميزان بالقسط وغير ذلك فان النسخَ لايلحقها، بل هى مقررةٌ محتمةٌ فى كل شريعة الهية .

أما الفرعية فانها كما سلف تُنسَخُ فتُقَرَّرُ تارةً فى بعض الأزمنة لبعضِ الأمم ثم تتبدلُ فى بعضٍ [illegible] وشرعَ اللهُ الحكيمُ غيرَها ، لانه سبحانه علِمَ أَنَّ غيرها أوفقُ لهذا الزمان الأخيرِ وأصلحُ لأهله ، وهو سبحانه انما يريد بعباده اليُسْرَ . ولا يريدُ بهم العُسْرَ (يُريدُ اللهُ أن يخففَ عنكم وَخُلِقَ الأنسانُ ضعيفاً)

قلنا ان [illegible] تعالى به رسوله شعيبًا هو ما أمرَ به رسولَه سيدَنا محمدًا عليهما

الصلاة والسلام، وذلك هو قوله سبحانه (وَأَوْفُوا الكيلَ اذا كِلتم وَزِنُوا بالقسطاسِ[١] المُسْتقيم . ذَلِكَ خَيرٌ وَأَحْسَنُ تأويلا[٢]) .

ولقد يحسن هنا أن نقف على ما سبق بكلمات وجيزة تتجلى فيها بعض حِكَم ديننا الحنيفِ ومحاسنِ التشريع الألهى الحكيم مما تضمنته هذه الآية الكريمة فنقول :

أمر الله تعالى فى شريعتنا المحمدية بايفاء المكيال فيما يكال وايفاء الميزان فيما يوزن كما أمر بذلك فى شرائع مَنْ قبلنا من الرسل ، والحكمة الألهية البالغة فى ذلك أنّ عدمَ ايفائهما اذا كان نقصا[٣] ، هو من قبيل اتلاف المال واضاعته على الشخص الذى لأجله الكيل أو الوزن وهو المُسْتَوفى كالمشترى — واذا كان زيادةً فهو من قبيل اتلاف المال وتفويته على المكتال منه وهو المُوفى كالبائع . وأيضا هو خيانة ونَكْثٌ للعهد الذى تقتضيه المبادلة بين البائع والمشترى مثلا . وقد قال الله عزّت أسماؤه (إنَّ العهدَ كَانَ مَسْئُولاً) .

ثم انه سبحانه أرشد عباده الى الحكمة الألهية التى لأجلها أوجب الأيفاء فى الكيل والوزن ، فاخبرهم أنَّ ذلك لأمرين جليلين (الأول) أن ايفاءهما خيرٌ ، أى وصفٌ حميدٌ يرغبُه العقلاءُ أهلُ الفضائلِ والأمانة والمُرُوءة كافّةً فى كل حال وآن (الثانى) أنه أحسنُ تأويلا ، وأحْمَدُ مآلاً وأطيبُ عاقبةً فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فانه يُكسِبُ صاحبَه الشهرةَ بين الناس بالأمانة وايتاء كلّ ذى حقٍ حقه ولا جدالَ أن ذلك يجعل له الذكرَ الجميلَ بين الناس ويُوجبُ الرغبةَ الصادقةَ فى معاملته ، ولا يخفى عليك ما يعود عليه من ذلك من الرواج والربح الحلال العظيم . أضِفْ الى هذه الفوائد الخاصة التى عادت عليه ، تلك الفائدةَ العامةَ التى تعود على الناس ، وهى عدمُ ضياعِ أموالِهم عليهم بنقص المكيال والميزان ، ثم اتخاذُهم له قدوة

---

(١) [illegible]

(٢) مآلا وعاقبة

(٣) راجع ما سبق فى تفسير الآية المتقدمة

يقتدون بها وجعلُه اما ما لهم يأتمّون به فى هذا الفعل المشكور ليَرُوجوا كما راج ويستفيدوا كما استفاد .

وأما فى الآخرة التى هى خير وأبقى ، فانه يكون مرضياً عنه من الله تعالى الذى وَصفَ نفسَه بانه لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عملا ، وأنه سيَجْزِى العاملين للصالحات أجرَهم باحسن ما كانوا يعملون .

هذا : وانه ليَحْزُننا ما تكرَّرَ سماعُنا له من قول القائلين ، إن غيرَ المسلمِ عَدْلٌ أمين لا يَنْدُرُك ولا يخونك فى معاملة من كيل أو وزن مثلا ، ولهذا كانت معاملتُه أفضلَ وان كانت بعوض أكثر .

أما المسلم فانه لا يَعرِف للأمانة قدرا ولا يُقيمُ للوفاء وَزْناً فهو اذا كال أو وزن طَفّفَ واذا عاملك خانك الا ما دُمْتَ عليه قائما .

لم نحزَنْ لهذا القولِ ضنّاً منا على غيرالمسلم ان يكون امينا او حسدا له ان يكون ذا فضيلة ومُرُوءة ، فان ذلك إثمٌ حرَّمته على المسلمين شريعتُهم الحنيفيةُ السمحةُ ، ألم تر ان الله تعالى قد أدّب المسلمين وعلّمهم كيف يعاملون غيرهم اذ قال (لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ) لم نَحْزَنْ لهذا ، بل انما كان حزنُنا من ان المسلمين قد نبذوا قرآنهم ظِهْرِيّاً ونَسُوا اللهَ بتركهم العمل بتعاليمه واحكامهِ الحكيمةِ ، بل بتعطيلها وذمّها والصدِّ عنها ، فكان من ذلك تطفيفُهم المكيال والميزانَ وخيانتُهم الأمانةَ ونكثُهم العهودَ ونقضُهم المواثيقَ استخفافا باوامر الدين ونواهيه وزُهدا فى الربح الحلال الذى يثمره امتثالُ ما اوجبه الله ، وتراهم بعد ذلك اذا تُليت عليهم آياتُ الله الآمرةُ الناهيةُ (لَوَّوْا رُءُوسَهم ورأيتَهم يَصُدُّون وهُمْ مُسْتَكبِرُونَ)

ليت الأمرَ وقفَ عند هذا الحدّ ، وليت هذه الشرورَ والمذام حاقت بهم وحدهم

بل ان الأمر ادهى من ذلك وأمرُّ ، فان سيئات ما كسبوا وجرائرَ ماعملوا ، قد طوّقت بدين الله تعالى ، فزعم الجاهلون به أنه اصل جهلِ المسلمين ومَرجِعُ فسادِ احوالهم وشؤونهم الدنيويةِ ومنشأُ خمولهم وخمودهم وجمودهم على ماهم فيه ، وأنه لارجاء فى تدارك ما فاتهم من صلاح احوالهم ولا طمع فى استقامة ماالتوى من شؤونهم ماداموا يقاومون كلَّ اصلاح دنيوى بما يحتجُّون به من احكام دينهم الذى هو للدنيا عدوٌّ مبين .

هكذا ادّعى الجاهلون بحقيقة الاسلام واحتجوا على انه كما قالوا بأمرين (اولهما) أعمالُ اهله المؤمنين به فان أعمالهم شاهدة عليه بهذا ، فلوكانت حقيقتُه غيرَ ذلك لظهرتْ ثمرتُها فى اعمال الذين يدينون به (ثانيهما) انه دين كبقية الأديان لاسلطان له الا على الارواح يُذَكّرها بالهها . اما الحياة الدنيا وشؤونُها من العلم بهـا والعملِ لها ومعرفةِ طرقِ اصلاحها واساليبِ الانتفاع والتمتع بها وسائرِ وجوه النفع والانتفاع التى يقوم عليها صلاحُ المجتمع الانسانى على كثرتها وتنوعِ فنونها ، فان الاسلام كثيره لاشأن له بها ولاشىء من ذلك يستفاد منه فكان لذلك دينا رُوحيا لااجتماعيا دنيويا ، هكذا زعموا وقلّدهم منا المقلدون ، وكلُّهم جميعا مخطئون وخاطئون .[1]

نحن الآن بعد ما بسطنا ذلك فما سلف لسنا فى حاجة الى الأفاضة فى بيانِ خطأ هؤلاء الزاعمين والذين شايعوهم فى زعمهم واتهامهم عمدا او جهلا دينَ الله تعالى بانه دين جُرُز[2] عقيمٌ ليس للحياة الدنيا وشؤونها فيه مَرْعًى صالحٌ ولا ماتقوم عليه نُظُمُها من أحكام دنيوية تناسبها وتسير الى جانبها الى غيرذلك مما يَرْمِى به العدوُّ عدوّه والصديقُ الجاهلُ صديقَه وجميعُهم قدضلوا عن سواء السبيل وقذفوا بالغيب دينَ الله تعالى من مكان بعيد . وان تَعجَبْ فَعجَبٌ قولُهم : (انا نؤمن بالله رب العالمين الذى له العظمة والكمال) ثم تراهم يُتْبِعُون مقالتَهم هذه بالطعن فى دينه ورميه بما ينافى رُبوبيّةَ الله العلى الكبير ويناقض عظمتَه وكمالَه سبحانه .

(١) الخاطئ متعمد الخطأ بخلاف المخطئ فانه لم يتعمد (٢) اصلها الارض التى لاتنبت [illegible]

ان هـذا لايصدُر الا عن احد رجلين ، رجل كاذب يُظْهِرُ خـلاف مايُبْطِن ويُبْدِى غيرما يُعيدُ ويقول مالا يفعل ، وقد غفل عما يَنِم به ثوبُ ريائه ومرائه ، ورجل جاهل بالله الذى يَدّعِى الأيمانَ به لايعرف لربوبيته سبحانه للعالمين معنًى ولايقدر لعظمته وكماله قدْرًا (وَلَه المَثَلُ الأعْلى فى السموات والأرض) .

فاما هذا الكاذب المُرائى فانه مُسْتَهتِرٌ[3] ماجنٌ[4] ، قد كَفَى العقلاءَ مؤونةَ تكذيبه وتشهيره ،أمَا تراه وهو فى كذبه وريائه قد استَغْشَى ثوبا من نَسْجِ كَذِبه وريائه وقد غاب عنه ان ثوبَه هذا يَشِفُّ عما تحته وينادى عليه بين المَلأ انه مُراءٍ كذّابٌ .

وأما ذلك الجاهلُ فاننا نرشده الى الصوابِ ونعلّمه ما جَهِل فنقولُ له ان رب العالمين جَلّتْ أسماؤه ونعوتُه هو الله خالق العالمين ومالكهم وهو الذى يُرَبِّى أبدانَ العباد بما يرزقهم من الطيبات من الرزق وبما يُفيضُه عليهم من بركات السماء والأرض حلالا طيبا،وهو الذى كما يربّى أبدانهم بهذا يربّى نفوسَهم بانواع العلوم الصحيحة ويهذبها باصناف المعارف الصادقة النافعة ويؤدبهم بضروب النقم والحوادث الدنيوية تذكرةً لهم وزجرًا لهم عما يَفْرُط منهم ثم يتمُّ نعمتَه عليهم بعد ذلك بارسال الرسل الكرام عليهم السلام ليبلغوهم عنه سبحانه دينَه القويمَ الكافلَ لمصالحهم الدنيويّةِ والأخرويةِ من العقائد الصحيحة والعبادات المشروعة التى يشكرون الله تعالى بها على نعمته ويتقربون بها اليه سبحانه زُلفَى وهم الفقراء اليه وهو الغنىّ الحميد وكذلك الاحكامُ الدينية العمليةُ التى تقوم عليها منافعُهم وأعمالُهم ومعاملاتُهم الدنيويةُ يَعلَمُ كلَّ هذا حقَّ العلمِ (الّذين ءَامَنُوا وَلَم يَلْبِسوا[5] إيمانَهم بظُلْم[6]) (أولئك هم الصادقون) و(أولئك هم المؤمنون حقًا)

لقد جَنَى هؤلاء القوم الطاعنون فى دين ربهم بالباطل، وفرّطوا فى أمرين عظيمين، كان يجبُ عليهم قبل أن يطعنوا أنفسَهم بطعنهم فى دين الله ظلمًا وزورًا أن يُحيطوا بهما علمًا ليكونوا من الأمر على بينة .

(الأمر الأول) أن يقدِروا ربَّهم حقَّ قدرِه فيَعرِفوا له سبحانه عظمتَه وكمالَه كما

(١) متبع هواه لايبالى بما فعل (٢) ماجن : هازل (٣) يخلطوا (٤) بما يفعلون به أنفسهم من الآثام

ادّعَوْا وأنه تنزهُ حكمتُه تعالى أنه يخلق خلقَه ثم يَذَرُهم فى طغيانهم يعمهون دون أن يبيّنَ لهم على السنة رسله ما يقوّمُ اعوجاجَهم فيعلّمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكّيهم ويأخذ بايديهم الى ما يصححُ معتقداتِهم ويرشدهم الى صلاح معاشِهم ومعادِهم دنيا وأخرى ، تلك هى السعادة الحقيقية العامة التى بيّنهـا الله تعالى للناس فى دينه القويم ولكن الذين يطعنون فيه بجهلهم لا يزالون فى حقيقة معنى السعادة يَعْمَهُونَ .

(الأمر الثانى) ان يسيروا سيرةَ الباحثين المنتقدين المنصفين فيطلعوا على الدين جملةً وتفصيلا فيَسْبُرُوا غَوْرَه ويَجُوبوا خلالَه ويُنقّبوا فى مَناحيهِ ويتدبروا آياتِه ويفطنوا الى اشاراته ويَقِفُوا على مبادئه ليَصِلوا منها الى غاياته ومقاصدِه الى غير ذلك ممـا يجب على الباحثِ الذى يريد الوصولَ الى الحقيقة من صراطها المستقيم .

اننا نُحْسِنُ الظنَّ بهؤلاء المجترئين على الطعن فى دين الله ، فنحملُ طعنهم هـذا على تقصيرهم المَعيبِ فى حقه وتمامِ جهلِهم الشأنَ به وبُعْدِهم عنه ، ولا نحملهُ على أنّهم قـد عَلِمُوه ولكنَّ فَرْطَ عنادِهم واستكبارِهم عن قبوله واصرارِهم على المجادلة فى الحق بعـد ماتبيّنَ هو الذى لَوَى من اعناقهم فولّوْا عنه وجوهَهم أنفةً واستنكافا .

وأيّاماً كان أمرُهم بازاء هذا الدين الحكيم ، فانا ننصحهم النصيحـةَ الخالصةَ ان يثُوبُوا الى رشدهم وينِيبُوا الى فطرتِهم ويتُوبُوا الى ربهم ليتعرّفوا هـذا الدينَ تعرُّفَ الباحثين المخلصين ، فعسى ان يعرِفوه ويـكونوا من المهتدين ، والله يهدى من يَسألُك للهداية سبيلها المستقيمَ .

هذا : واننا رغبةً فى تيسير الامر عليهم وتقريبهم الى طريق الحق السّوِىّ نأخـذ بايديهم الى ما قدّمناه من تفسير هذه الآية الكريمة . عسى أن يقيموا وجوهَهم له مخلصين ويعرفوا الحقّ حقا فيتّبعُوه مذْعِنين ويكونوا من (الذين يَستَمِعُونَ القَوْلَ فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . أولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُم اللهُ وأولَئِكَ هُمْ أولُوا الألبابِ) . حسن منصور

وكيل دار العلوم العليا سابقا